اهتمام بريطانيا بالآثار العراقية
المس بيل أنموذجا

أ.د محمد يوسف ابراهيم القريشي د. نصير خيرالله محمد العجمي
جامعة تكريت/ كلية التربية

الاهتمام بالآثار العراقية وتأسيس المتحف العراقي :

من المعروف جيدا ان غرترود بيل اهتمت منذ وقت مبكر بالآثار . ولكي تكون اكثر تحديدا فان الاهتمام بدا منذ دراستها الجامعية وما رافق هذه الدراسة من جولات في القارة الأوربية ومن ثم الشرق الذي اولعت به منذ اول زيارة لها لبلاد فارس عام 1892 . وبقدر تعلق الامر بالعراق فإنها زارت في السنوات التي سبقت قيام الحرب العالمية الاولى عددا من المواقع الاثارية في شمالي العراق ووسطه وجنوبه . ويمكن القول ان معظم مؤلفات غرترود عن الشرق لا تخلو من إشارات الى مواقع اثارية في العراق ، فضلا عن موجز تاريخ كل موقع والحضارة التي تعود اليها .

بعد ان التحقت غرترود بهيئة موظفي السير برسي كوكس في العراق ادركت الحاجة الضرورية الى الاهتمام بآثار العراق والمحافظة عليها من العبث والسرقة، ففي عام 1917 حذرت غرترود الموظف البريطاني المسؤول عن الواردات ، والذي كانت دائرته مسؤولة عن المواقع الاثارية ، من أي تصرف يسيء الى الاثار ، واخذت عليه تعهدا بعدم هدم أي مواقع أثارية في بغداد [1].

كما زارت غرترود عددا من المواقع التي أصبحت بها حاجة ماسة الى الترميم لميلها الى الانهدام . ومن ابرز هذه المواقع طاق كسرى الذي تعرض احد جدرانه للتصدع ، فما كان منها الا اصطحاب احد المهندسين الى الموقع لعمل ما بوسعه من اجل تقوية هذا الجدار[2] . ولما وصل الامير فيصل الى العراق اصطحبته لزيارة طاق كسرى لتطلعه على الاثار ومعالم الموقع ومحل جلوس كسرى ، وشرحت لفيصل كيفية فتح العرب المسلمين طيسفون بعد معركة القادسية كما رواها الطبري في تاريخه " الرسل والملوك " [3] .

ان الاهتمام الذي ابدته غرترود بالآثار العراقية وسبل المحافظة عليها دفع الملك فيصل ، بعد توليه العرش ، ان يطلب من الوزارة النقيبية ، وبإيحاء من غرترود ، تعيينها مديرة فخرية لدائرة الآثار القديمة بصورة مؤقتة حتى ايجاد الشخص المناسب ليتولى امور هذه الدائرة . وقد حظى هذا التعيين بارتياح غرترود التي بدأت العمل بالتفكير في الطرق التي تحمي الآثار من السرقة .

وفي احدى زيارتها الملك طلبت منه مساعدتها في تشريع "قانون التنقيب " الذي قامت بإعداده بعد استشارات قانونية . وعند مناقشة الملك معها مشروع القانون تعهد لها بتمريره في مجلس

الـــوزراء . ارتبطـــت دائـــرة الآثـــار القديمـــة بـــوزارة الإشـــغال والمواصلات[4] . وهذا ما آثار فرح غرترود للصداقة التي تربطها بوزيرها صبيح نشأت الذي استقبلها عدة مرات وناقش معها مشروع القانون . كما حضرت **غرترود اجتماع مجلس الوزراء لشرح بنوده الذي قرأت فقراته ودافعت عنها امام اعضاء الوزارة . وبعد مناقشة دامت ساعتين تمكنت من إقناع الوزراء بالمشروع فصدر القانون بعد إدخال بعض التعديلات** [5].

استقبلت غرترود بعد توليها دائرة الآثار القديمة عددا من البعثات الأثارية الأجنبية التي كانت تطمح الى الحصول على امتياز التنقيب في بعض المواقع الاثارية . ومن اشهر هذه البعثات البعثة المشتركة للمتحف البريطاني وجامعة بنسلفانيا الأمريكية برئاسة ليوناردو وولي " L . Woolley "[6] وحصلت هذه البعثة على امتياز التنقيب في مدينة اور الأثرية ، وبدأت العمل في تشرين الثاني 1922 واستمرت فيه سنوات طوالا ، كما منحت جامعة اكسفورد امتيازا للتنقيب في مدينة كيش وبدأت العمل في كانون الثاني 1923 [7].

أتمت البعثة الآثارية المشتركة موسمها الاول في مدينة أور حيث نجحت في العثور على قطع آثارية مختلفة لذلك ذهبت غرترود الى مكان عمل البعثة لاقتسام هذه اللقى الاثرية بين البعثة والعراق [8].

استغرقت عملية الاقتسام يوما كاملا وقد حرصت غرترود على الحصول على احسن اللقى الاثرية الموجودة ، مما اثار غضب المستر وولي لاختيارها قطعا تمثل خوذة ذهبية ، قيثارة ، دبوسا ذهبيا ، وهي افضل ما تم العثور عليه . كما حصلت غرترود على قطعة أثرية عبارة عن تمثال سومري لأحد ملوك مدينة كيش يبلغ طوله ثلاثة اقدام ، لكنه بلا رأس كتب على كتفه كتابة تمكن احد الآثاريين الموجودين من قراءة اسم الملك فقط دون التوصل الى معرفة معاني الكلمات الاخرى ، لذلك ارتأت غرترود ارسال التمثال لى لندن ليفك رموزه علماء الآثار ويعاد الى العراق بعد الانتهاء من ذلك [9].

جمعت غرترود القطع الاثرية التي حصلت عليها نتيجة الاقتسام .وبعد ان أستحصلت موافقة الحكومة العراقية قررت اقامة معرض صغير تعرض فيه آثار مدينة اور ، بعد ترتيبها بصورة منظمة حيث وضعت على كل قطعة بطاقة تضمنت معلومات عن القطعة باللغتين العربية والانكليزية ، ووجهت الدعوة الى الملك والى بعض الوزراء والوجهاء لحضور هذا المعرض [10].

شهد مطلع عام 1924 قيام غرترود بجولة تفتيشية على المواقع الاثرية في الجنوب للاطلاع على إعمال الحفر والتنقيب التي تقوم بها البعثات الاثارية ولمسح المواقع الاثرية كافة الموجودة في العراق . وقد

وضعت تقريرا عن هذه الجولة دونت فيه مشاهداتها لإعمال الحفريات القائمة في تلك المواقع ، إذ زارت في بداية هذه الجولة مدينة كيش ، التي تعمل فيها بعثة اثرية تضم مجموعة من كبار علماء الآشوريات[11] . وفي يوم 5 كانون 1924 زارت مدينة الوركاء فوجدت فيها مجموعة من الرجال والنساء والصبيان مشغولين بالحفر بصورة غير منتظمة وقد جمعت هؤلاء الناس واخبرتهم بان عملهم هذا مخالف للقانون وان عليهم الابتعاد عن هذه الإعمال لأنها تعرضهم للمسالة القانونية ، ثم طلبت منهم جلب ما لديهم من قطع آثارية لكي تشتريها منهم لغرض وضعها في المتحف ، وطلبت منهم جمع كل ما عندهم وبيعه لها الآن، واذا لم يرغبوا في ذلك الآن فبإمكانهم تسليمها الى شخص منهم ليقوم بجمع هذه القطع ليوصلها اليها ويأخذ الأموال اللازمة . ومع ذلك كانت غرترود تعتقد ان من الصعوبة منع الحفر في الوركاء ، لان منطقة الحفر بعيدة عن أنظار الحكومة وقريبة من مساكن هؤلاء الناس ، وان الأمل في الحصول على بعض الروبيات تغريهم للاستمرار في الحفر وان هذا بدوره يسبب إضرارا كبيرة للآثار[12].

وفي 16 كانون الثاني 1924 ، زارت احد المواقع بالقرب من الشطرة ، وقد شاهدت في هذه المنطقة وجود العديد من الحفر غير المنتظمة . وقد ترك في احدى هذه الحفر معول وفأس وشاهدت بعض الرجال عن بعد ، فأمرت الشرطة الذين كانوا يرافقونها بالإتيان بهؤلاء

الرجال ، فتمكنوا من احدهم ، بعد هرب الباقين ، ولما استفسرت منه عن تلك الحفر اخبرها انها من فعل مجموعة من اهل الشطرة . وتعتقد غرترود ان هذه الإعمال تجري لحساب تاجر من اهل بغداد يتاجر بالآثار القديمة لذلك فانه يؤجر جماعات من الناس ليقوموا بالحفر ويشتري منهم كل ما يعثرون عليه ، ويقوم هو بدوره ببيع هذه القطع لتجار الآثار في اوربا الذين كانوا يدفعون مبالغ كبيرة لما لهذه القطع من قيمة عالية . ولإيقاف مثل هذه الإعمال فإنها ترى ان الواجب يقتضي التنسيق مع وزير الداخلية لتعيين عدد من الموظفين المحليين ليقوموا بالمراقبة ومنع إعمال الحفر والتنقيب التي يقوم بها عامة الناس ، والممنوعة بموجب القانون [13].

بعد ان أتمت غرترود جولتها زارت اور لاقتسام اللقى الاثرية التي عثر عليها . وفي هذه المرة أيضا أصرت غرترود على اخذ احدى القطع التي تمثل منظرا لحلب الأبقار وهو منظر فريد ولذلك أرادت وضعه في المتحف . وقد اثار ذلك المستر وولي الذي قدر قيمة القطعة بعشرة آلاف باون استرليني في اقل تقدير، لذلك قررت غرترود إخفاء قيمة القطعة عن الحكومة خشية ان تقرر بيعها بدلا من وضعها في المتحف [14].

لم تقتصر مهمة غرترود على إقامة المعارض وتفقد المواقع الأثرية وحضور عمليات اقتسام الآثار ، وإنما أرادت الاستفادة من وجود عدد من علماء الآثار المصاحبين للبعثات الاثرية في إلقاء محاضرات لشرح تاريخ العراق القديم وأهمية المواقع الاثرية القديمة وقيمتها في كشف تاريخ البلاد القديم ، ومن ابرز هذه المحاضرات ، المحاضرة التي ألقاها المستر وولي بدعوة من غرترود بوصفها مديرة فخرية لدائرة الاثار القديمة . وحضر هذه المحاضرة الملك فيصل وعدد من الوزراء والمثقفين واضطلعت غرترود بمهمة ترجمة المحاضرة كاملة للحضور ، كما قامت بتعرف الملك بالمستر وولي

لكونه احد العلماء الاثاريين المشهورين[15].

تعمقت غرترود في دراسة تاريخ العراق القديم ولاسيما المؤلفات التي أصدرتها جامعة كمبردج[16] . فضلا عن استفادتها من المعلومات الجديدة التي تكشفها التنقيبات لتعزيز معلوماتها الاثارية السابقة [17]. وهذا ما جعل معلوماتها غزيرة في هذا الجانب .

ويبدو ان تولي غرترود مهمة رئاسة دائرة الآثار القديمة بصورة فخرية يعود الى عدم تفرغها لشؤون هذه الدائرة تفرغا كاملا ، لان عملها الرئيس كان مع المندوب السامي بصفة سكرتيرة شرقية ، ولكن

شغفها بالآثار دفعها الى تولي المسؤولية الفخرية لدائرة الآثار وتخصيص جزء من وقتها لها .

لقد اشرنا من قبل الى المعرض الذي إقامته غرترود للقى الاثرية التي حصلت عليها من اور . وقد تضافرت جهود غرترود في العمل من اجل جعل هذا المعرض متحفا دائما لآثار العراق حيث قامت بجمع الآثار التي كانت تحصل عليها في هذا المتحف حتى غدا المتحف يضم عددا كبيرا من القطع الاثارية وقد اشار الاستاذ محمد علي مصطفى الى ضخامة هذا العدد . فعندما عمل الاستاذ محمد علي في المتحف في بداية الثلاثينات وجد صناديق ضخمة وبإعداد كبيرة معبأة بقطع آثارية مختلفة تعد بالآلاف إضافة الى ما عرض من قطع ، وقد اخبره العاملون الذين سبقوه في العمل في المتحف بان هذه الصناديق والآثار الموجودة فيها قد جمعتها غرترود اثناء مسؤولية دائرة الاثار القديمة [18].

بذلت غرترود جهودها من اجل الحصول على بناية كبيرة وجديدة للمتحف[19] . لان بنايته السابقة أصبحت غير صالحة لصغرها وعدم استيعابه للمزيد من القطع الاثرية. وتمكنت من الحصول على بناية كبيرة بدأت بترتيبها من خلال شراء دواليب لحفظ الآثار تيسيرا لعرضها على الزوار ، كما عملت على ترتيب القطع الاثرية بطريقة نموذجية من خلال وضع البطاقات التوضيحية والاعتناء بهذه القطع وحفظها . لقد استنزفت هذه الإعمال وقتا وجهدا كبيرا ومع ذلك فإنها كانت سعيدة

بعملها في المتحف وهي تقول " انها الوحيدة التي تعرف عن كل شي موجود في المتحف " وهي ترى ان عملها مسؤولية كبيرة ليس تجاه العراق وحكومته التي اعطتها إدارة الآثار القديمة وانما تجاه علم الآثار بصورة عامة[20].

أصبح المتحف الذي أسسته غرترود من الترتيب والأناقة ما جعلها تصفه بأنه شبيه بالمتحف البريطاني، الا انه اصغر منه ، فالزائر بإمكانه ان يرى الدواليب وهي مرتبة بحسب العصور التاريخية وكل قطعة عليها بطاقة اسمها وتضم معلومات عن العصر الذي تمثله ومكان وجودها وماذا تمثل هذه القطعة[21].

استمرت غرترود في اداء إعمالها في دائرة الآثار القديمة بذات الهمة والنشاط والحيوية التي بدأت في بداية تسلمها هذه الدائرة اذ واصلت زيارة المواقع الاثرية واستقبال البعثات الاثارية ، اضافة الى تنظيم أمور المتحف وجلب المزيد من القطع الاثرية لوضعها فيه وكان للجهود الكبيرة التي بذلتها غرترود في تأسيس دائرة الآثار القديمة والمتحف العراقي وتشريع قانون الآثار وتبرعها بمبلغ ستة آلاف جنيه استرليني لتصرف على تأسيس مدرسة تعني بدراسة الآثار القديمة في العراق ، على ان يستخدم قسم من المبلغ للأعمال التنقيبية في العراق بحسب ما أوصت في وصيتها التي كشف عنها بعد وفاتها [22] . ان نفذ عدد من البريطانيين المهتمين بالآثار من أصدقاء غرترود وانتخبوا لجنة

لجمع التبرعات لإنشاء هذه المدرسة واختاروا برسي كوكس رئيسا للجنة وبونهام كارتر[23] سكرتيرا لها وضمت مجموعة من علماء الآثار المشهورين[24] . وعقدت اللجنة اواخر عام 1929 عددا من الاجتماعات والندوات التي ألقيت فيها الخطب والكلمات التي توضح أهمية وقيمة العمل الذي تعتزم اللجنة القيام به وهو إحياء ذكرى غرترود بيل . واسهم في إلقاء هذه الخطب مجموعة من الأشخاص المهمين من أبرزهم رئيس الوزراء البريطاني " James Ramsay 1929 -1935 Macdonald " الذي أعلن في خطبته استعداد الحكومة البريطانية للتعاون مع الحكومة العراقية لإنجاح هذا العمل [25]. كانت الغاية الأساسية من تأسيس المدرسة تشجيع الطلاب البريطانيين المعنيين بدراسة الآثار العراقية القديمة من خلال منحهم التسهيلات الميسرة كدفع نفقات دراستهم او سفرهم الى العراق والهدف من كل هذا تشجيع الحفريات الاثارية في العراق وبشكل واسع على ان يتم التنسيق بين هذه المدرسة والبعثات الاثارية العاملة في التنقيب والحفر في العراق[26] . وأصدرت هذه المدرسة مجلة تعني بشؤون الآثار العراقية سميت "Archeology and Architecture in iraq" أي "الآثار والعمارة في العراق"، واسهم في تحريرها والكتابة لها عدد من علماء الآثار البريطانيين وغيرهم [27].

ولعل أفضل اعتراف للحكومة العراقية بالجهود التي بذلتها غرترود في هذا المجال هو إقدامها على وضع تمثال في المتحف العراقي يمثل غرترود بيل تخليدا لذكراها [28]. ورفع الملك فيصل الستار عن التمثال يوم 18 كانون الثاني 1930 بحضور المندوب السامي السير فرنسيي همفريز[29] والمستشارين البريطانيين[30]. والتمثال نصفي قائم على لوح من نحاس منقوش مساحته متر مربع ويحوي كتابة باللغة الانكليزية من جهة اليسار وباللغة العربية من جهة اليمين وهذا نصها ."[31] غرترود بيل ، التي لذكراها عند العرب كل إجلال وعطف ، أسست هذا المتحف عام 1923 بصفتها المديرة الفخرية للعاديات في العراق[32]. وجمعت الأشياء الثمينة التي يحتويها بإخلاص وعلم دقيق واشتغلت بها على مدى حر الصيف الى يوم وفاتها". وقد امر الملك فيصل بان يطلق اسمها على الجناح الرئيس في المتحف تكريما لجهودها في تأسيس المتحف[33]. ومما لا شك فيه ان الجهود التي بذلتها غرترود بيل في إثناء توليها دائرة الآثار القديمة أثمرت عن الكشف عن حضارة العراق وأثاره التي أثارت إعجاب العالم ودفع المزيد من البعثات للتوجه الى العراق طمعا في الحصول على امتياز التنقيب .

الهـوامـش

(1) علاء جاسم محمد ، الملك فيصل الأول حياته ودوره السياسي في الثورة العربية وسوريا والعراق 1881-1933 ، بغداد ، مكتبة اليقظة العربية ، 1990 ، ص38.

(2) Lady Bell,The letters of Gertrude Bell , London, Ernst benn limited, 1927, 2 vols,p.597

(3) أمين الريحاني ، الملك فيصل الأول ،ط2،بيروت'دار الريحاني ،1958،ص71.

(4) قحطان رشيد صالح ،الكشاف الأثري في العراق ،الموصل ،دار الكتب، 1987،ص18.

(5) Lady Bell , Op.cit,Vol.2,P.645 .

(6) Ibid,Pp.653-655 .

(7) ليوناردو وولي هو احتد علماء الآثار المشهورين الذين نقبوا في مدينة اور سنوات طوالا .

(8) Josephin, KAMM, Gertrude bell daughter of the desert , new York, vanguard press, N.D, P. 178 .

(9) Lady Bell ,Op.cit,Vol.2,P.658 .

(10)مقابلة مع الاستاذ محمد علي مصطفى في 18 آب 1992 .

(11)Lady Bell Op.cit.,Vol.2,P.666.

(12)Elizabeth, Burgeon, Gertrude bell from her personal papers 1914-1926, London, Ernest benn limited, 1961, p. 311 .

(13)Burgoyne,cit.,p.311

(14)جريدة العراق ،العدد 1139 في 9 شباط 1924.

(15) جريدة العراق ،العدد 1142 في 13 شباط 1924.
(16) Lady Bell Op.cit.,Vol.2,PP.686-687; Burgoyne Op. cit.,p.337
(17) Burgoyne, Op.cit.,p.335
(18) Lbid.,p.356
(19) ARCHAEOLOGY and ARCHITECUTURE in IRAQ, vol,1,PART 1, APRIL1934,P.2.
(20)مقابلة شخصية مع الاستاذ محمد علي مصطفى بتاريخ 18 آب 1992 .
(21)شغل المتحف في بداية تأسيسه غرفة كبيرة في مبنى القشلة ثم خصصت له بناية في شارع المأمون ، ومنها انتقل الى البناية الحالية والمكان الثاني هو الذي حصلت عليه غرترود .انظر فرج بصمة جي ،كنوز المتحف العراقي ، بغداد ،دائرة الآثار ، 1972 ، ص 9 .
(22) Lady Bell ,Op.cit.,Vol.2,P.749.
(23) Ibid,P.749 .
(24)دار الكتب والوثائق /ملفات البلاط الملكي 1863/311/وثيقة 13 صفحة 13.
(25) M.E.L Mallowan , Twenty Five Years of Mesopotamian Discovery 1932-1956 , published by the British School of Archaeology in iraq . 1956 P.1.
(26)بونهام كارتر ، من كبار موظفي الإدارة البريطانية في العراق ، كان مسؤولا عن دائرة العدل ثم اصبح مستشارا لوزارة العدل في الحكومة العراقية .
(27)جريدة البلاد ،العدد19،كانون الأول 1929.
(28)جريدة البلاد ، العدد10،5 تشرين الأول 1929.
(29)دار الكتب والوثائق ، ملفات البلاط الملكي 311 / 1863 / وثيقة 13 صفحة 13 .
(30)توجد اعداد من هذه المجلة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد واعداد اخرى في المكتبة الوطنية ببغداد .

(31)دار الكتب والوثائق / ملفات البلاط الملكي 311 / 1860 / وثيقة 15 . دار الكتب والوثائق / ملفات البلاط الملكي 311 / 1860 / وثيقة 26 / صفحة 37 .

(32)سياسي بريطاني تولى منصب المندوب السامي في العراق في 7 تشرين الاول 1929 خلفا لكبرت كلايتون الذي توفي في بغداد تشرين الاول . للتفاصيل انظر الحسني ، الوزارات ، ص 282 .
(33) جريدة العالم العربي ،العدد1790 في14 كانون الثاني 1930.

(34)التمثال موجود في الوقت الحاضر في مخازن المتحف العراقي وهو حالة سليمة . وقد رفع من قاعات المتحف منذ سنوات وهذا ما اخبرني به الدكتور صباح جاسم الشكري مدير المتحف في مقابلة معه في 15 / اب 1992 .
(35)هذا ما ورد في التعليق على التمثال برغم ان غرترود كانت رسميا المديرة الفخرية لدائرة الآثار ومن ثم لم يكن اسم العاديات هو المستعمل .
(36)مجلة لغة العرب /العدد الثاني /السنة الثانية ،1912 ص23 .